

من الفن الروماني بالجم إلى "الفن الأوروبي" بتونس العاصمة

أنيس القرعة

المعهد العالي للفنون والحرف بالمهدية / جامعة المنستير

المخلص:

يهتم البحث بزخرفة ديار ومنازل مدينة "تيسندروس" التاريخية، نظرا لتمائلها مع فنون النحت والنقش الخاصة بواجهات مباني "مدينة تونس الأوروبية". وتأتي هذه الورقة، للكشف عن مظاهر التواصل التشكيلي والفني، بين عمارة مدينة الجم الرومانية وبين عمارة مدينة تونس الكولونيلية، وذلك عبر:

- إبراز التقاطع في المنطلقات الفكرية والتجليات الجمالية الخاصة بالأشكال المعمارية والزخرفية،
- وعبر عرض وتحليل جملة من الأشكال البنائية والتزويقية، التي تتقاسم نفس التعبيرات الفنية، ضمن مقاربة تشكيلية وجمالية تهتم بدورها بالجوانب الرمزية والثقافية.

الكلمات المفتاح:

«فن الفسيفساء»، «الفن الجديد»، «الفن الأوروبي»، «التواصل الفني».

I. المقدمة:

تُعرف "تيسندروس" (الجم)، بزخم تراثها، وبمسرحتها الضخم، المُدرج ضمن قائمة اليونسكو للتراث العالمي سنة 1979، وبالرغم من ذلك فإننا نلاحظ تدهور نسيجها الحضري، وعدم حماية واستغلال جل مواقعها الأثرية المهجورة. ومن هذا المنطلق، واستجابةً للتحديات الحالية التي تعيشها المدينة، نوّكّد على قيمة ودور تراثها الأثري والثقافي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياحية، ونسعى إلى تعزيز هذا التراث المشترك¹ عبر التعريف ببعض اللوحات الفسيفسائية والنماذج المعمارية، المعروضة بالمتحف الأثري بالجم، وعبر بيان تماثله بتراث مدينة تونس المعماري، الناطق بنفس المصطلحات الزخرفية والرموز الثقافية.

II. مدينة الجم التاريخية : الخصائص المعمارية والفنية

عُرفت مدينة الجم بتعدد ثقافتها واختلاف الحضارات المتعاقبة على أراضيها، ومن بين أهم ما يمكن ذكره في هذا المجال، هو ما خلفته الفترة البونية والرومانية من منجزات أثرية وتراثية. ويشهد قَصْرُ الجم (كُولُوسِيُومِ تيسندروس)، والمدينة الأثرية الرومانية المحيطة به على عراقة البناء² ومجد الإمبراطورية الرومانية زمن "جورديان الثاني".

ويعود تاريخ تأسيس مدينة الجم ("تيسندروس")، إلى الفترة البونية وبالتحديد الى القرن الثالث قبل الميلاد، وبالرغم من ظروفها الطبيعية السيئة، فقد كانت منذ أواسط القرن الأول سوقا يقصده التجار الايطاليون، فكانت تربط تجاريا بين مواني الساحل ووسط البلاد، وبلغت المدينة أوج عظمتها في نهاية القرن الثاني والعقود الأولى من القرن الثالث ميلادي، لتشهد نتيجة الازدهار الاقتصادي تطورا فنيا ومعماريا تدل عليه جملة معالمها ومبانيها الفاخرة كالمساكن والحمامات وغيرها³.

1 يخص مصطلح "التراث المشترك" مشروع التراث المعماري والحضري الحديث في منطقة البحر الأبيض المتوسط، المنجزة فعالياته ضمن برنامج التراث الأوروبي المتوسطي، والقائم على تحديد وتوثيق وتعزيز التراث الحديث الخاص بالقرن 19 و20، والهادف لتشجيع دمج التراث الثقافي في الحياة الاقتصادية والاجتماعية الحالية.
2 شيد المسرح بالحجارة، بحسب الأسلوب المركب في الطابق الثاني والأسلوب الكورنثي في الطابق الأرضي والثالث، وصمّم المسرح ليحتوي العديد من الفضاءات كالحلية والمدارج والسراديب...، للسيطرة على الشعب وإبعاده عن الاهتمام بالسياسة (انظر: الهادي سليم، تيزدروس الجم، سلسلة مسالك الحضارة، الوكالة القومية للتراث، أثار للنشر، 1997، تونس).
3 انظر: الهادي سليم، تيزدروس الجم، سلسلة مسالك الحضارة، الوكالة القومية للتراث، أثار للنشر، 1997، تونس، ص 04.

وتتصف مدينة "تيسندروس"، بنظام حضري شعاعي، يؤكد تموقع منازلها الموزع بحسب القيمة والمنزلة الاجتماعية، حيث يُصنّف السكن في القرنين الثاني والثالث الميلاديين إلى صنفين:

- صنف المنازل البسيطة: وهي المشيّدة بوسط المدينة، وتخص الحرفيين، وصغار التجار. وتحاذي تلك المنازل الدكاكين، وورشات العمل، وكمثال على ذلك نذكر دار سيلان والحمار (انظر إلى الصورة عدد 01).
- وصنف المنازل الفاخرة: وهي المجاورة لقلب المدينة، وتتصف باتساعها وتعدد غرفها، ومثال ذلك دار أفريقيا ودار الطاوس، ودار موكب "ديونيسوس" ... (انظر إلى الصورة عدد 02).

وإن ما يشد الزائر لهذه المنازل هو جودة زخارفها وجمال ووفرة الفسيفساء المزوقة لأرضية غرفها: حيث يلاحظ تعددا في التعبيرات اللونية والتقنيات التشكيلية لفن الفسيفساء⁴.

لقد كشفت "تيسندروس" عن آثار تعكس مهارات فنانها، وإتقانهم لفنون النحت والزخرفة المعمارية، وصناعة الجبس. ومن أبرز ما يمكن ذكره في هذا المجال هو حذقهم لصنع القوالب، والأقنعة الجنازية، ودعائم البناء المصنوعة من الجص⁵. كما تعددت استعمالات الجص في علاقتها بتقنيات الزخرفة الجدارية، وتقويم الحجارة، وفنون الطلاء. كما تميّزت مدينة "تيسندروس" بصناعة المعادن⁶، وفنون النحت⁷، ورواج اقتصادها المرتبط بفنون الخزف⁸...

III. مدينة تونس الأوروبية: الخصائص المعمارية والفنية

تعتز العاصمة تونس، الوريثة لسيادة قرطاج، بإنتماها لثقافات متنوعة، أسهمت جميعها في إثراء خصائصها المعمارية والتراثية. ومن بين أهم الحقبات المحددة لتطور عمارة مدينة تونس ونموها العمراني، نذكر فترة الاحتلال الفرنسي المنتجة لما يسمى بـ: "مدينة تونس الأوروبية"⁹.

وتتميز "مدينة تونس الأوروبية" بأسلوب حضري شطرنجي يحكمه تعامد مبانيها، واتساع شوارعها. وتكمن مظاهر التأثير الأوروبي في مجال العمارة والتعمير، في التطورات الفنية والتركيبية¹⁰، المفردة للمشاهد المعماري والحضري الحديث (انظر إلى الصورة عدد 04/03). ويُعتبر نمط "الفن الجديد" والنمط الانتقائي¹¹، من أهم الأساليب المعمارية الأوروبية المعبرة عن التفوق التقني والفني، بمدينة تونس في أواخر القرن 19 وبدايات القرن 20.

⁴نقصد بتعدد التعبيرات اللونية والتقنيات التشكيلية، اختلاف المدارس المؤسسة لازدهار فن الفسيفساء، والتي حكمت تطوره: من الاستعمال الحضري للقيم الضوئية (القرن الأول وبداية الثاني)، مروراً باستعمال الألوان ودمج الزخرف النباتي والأشكال الهندسية في علاقتها بالمواضيع الميتولوجية (من منتصف القرن الثاني)، وصولاً إلى توثيق الواقع المحلي بتصوير المشاهد اليومية (نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث).

⁵ كانت تيجان أعمدة صحن دار أفريكا الكورنثية مصنوعة من حجر رجيح، ومحلات بأشكال جصية تمثل أوراق الأكنثوس، كما عُثر بدينة الجص، على العديد من الركنات الجصية المدهونة والمزخرفة، التي تذكرنا بفنون عصر النهضة (انظر العمارة المحلية اليونانية والهلمستية والرومانية، الصيانة والإحياء، أحمد الفرجاوي و"ماريا لويزا جيرمانا"، 2014).

⁶ مكنت عديد الحفرات بمدينة الجص من الكشف على العديد من الأسبار، نذكر من بينها تلك المعروضة في دار أفريقيا: كاسلاك ربط الأجر، وقنوات التزود بالماء، والأواني، وغيرها..

⁷ تم العثور بمدينة "تيسندروس"، على عدة ورشات للنحت، وأخرى لصنع قوالب النحت الجنائزي، وتشهد بعض المنحوتات، والإشارات، والأقنعة المنحوتة، والمعروضة في دار أفريقيا، على براعة تمثيل الوجه والأجساد الدالة على قيمة ورواج فنون النحت والتجسيد بالمنطقة (انظر الصور الخاصة بالملحق).

⁸ لقيت صناعة الخزف مكانة هامة في اقتصاد "تيسندروس"، ويشهد على ذلك الكم الهائل من الأشكال الخزفية التي عُثر عليها كالتقادل، واللوحات المربعة من الأجر المفخور... (انظر: عماد بن جريبات، الخزف الـ"ما قبل الإمبراطوري" "تيسندروس"، سلسلة الآثار الإفريقية عدد 44، المركز الوطني للبحوث العلمية باريس فرنسا، 2008، ص. 23-42)

⁹ تتكون "مدينة تونس الأوروبية" من جملة المباني المشيّدة بأيدي مهندسين وفنانين فرنسيين وإيطاليين، وتضم المجال المتاخم لمدينة تونس العتيقة والممتد في اتجاه البحر.

¹⁰ يتجلى التطور الفني والمعماري من خلال إنجاز البنائين الفرنسيين والفنانين الإيطاليين لعدد وافر من العمارات والأبنية الضخمة، المزخرفة واجهاتها بشتى الأشكال المستلهمة أصولها التعبيرية من شتى الفنون الغربية. كما تميّزت العمارة الإيطالية بمدينة تونس، باستلهامها من العمارة الرومانية (استخدام الجص، والرخام، والإبداع في مجال البناء الحجري والنحت الزخرفي...).

¹¹ ظهر الأسلوب الانتقائي نتيجة الإهتمام بالمشاكل الحضريّة ونمو المدن، وليعكس المبادئ الفكرية والجمالية للحركات التنويرية، القائمة على إنتقاء البعض من المميزات المعمارية الكلاسيكية، دون الانتقائ التام عن الأساليب المعمارية الكلاسيكية، ويتميّز أسلوب "الفن الجديد"، بتجديد الميولات في مجال البناء، بأسلوب زخرفي خلاق، بناغم بين الهندسة المعمارية والزخرفة مؤثراً، بذلك، في استخدام وإخضاع عديد المواد والخامات كالحديد، والجص، والخزف، والفسيفساء، والخشب، والزجاج، وغيرها. وتلتزم أغلب واجهات مباني "الفن الجديد" ومباني النمط الانتقائي بمدينة تونس، بفن النحت والزخرفة الحائطية. وتميّزت هذه المنحوتات بالتنوع من حيث الصنف (النحت الناتئ المنخفض والمرتفع) والنحت المستقل)، والموضوع، كما تصفت الزخرفة الحائطية بتنوع مذاهبها ومقاصدها المستلهمة أغلبها من الأساطير اليونانية والرومانية، وسنسى لتبيان ذلك لاحقاً.

وتعد الواجهة المعمارية من أهم العناصر الإنشائية للمباني الأوربية بمدينة تونس. وتساهم تعبيراتها الفنية، العاكسة لبراعة الأساليب النحتية وإتقان تقنيات القولية والزخرفة الجدارية، في توفير السجل الاجتماعي والرمزي والثقافي لكل بناء.

IV. من الفن الروماني بالجم إلى "الفن الأوروبي" بتونس العاصمة

بعد التطرق للقيمة المعمارية والتراثية لـ"مدينة تونس الأوربية" و"مدينة الجم الرومانية"، يتم في هذا الجزء إصطفاء وعرض بعض المكونات البنائية والتزييقية لكل منهما، لإثبات فرضية تقاربها وتقاطعها في التعبيرات التشكيلية والمناخ المعرفية، ولتثمين هذا التراث المعماري والأركيولوجي (القيم والمشارك). وتشمل عينة البحث بعض الأيقونات والرموز البصرية والثقافية¹² الداعمة لمبدأ التواصل والتفاعل بين معارج بناء وزخرفة الواجهات المعمارية الكولونبالية بمدينة تونس من جهة، والأصول المعرفية والتنميقية المميزة للعمارة الرومانية بمدينة الجم من جهة أخرى. وتتكون هذه النماذج من زخارف هندسية، ومن رموز من الملاحم والروايات التاريخية والأسطورية، ومن أيقونات مجسدة لعالم الإنسان والحيوان والنبات (انظر الجزء الخاص بالصورة والأمثلة).

لقد تمكنا من رصد العديد من اللوحات الزخرفية، والأنصاب، والتنوعات النحتية المنتمية لمدينتي "الجم الرومانية" و"تونس الأوربية". ومن التجسيديات الأكثر تداولاً، نذكر التي تحيلنا لأساطير الآلهة¹³، والمشخصة لعالم الحيوان والإنسان¹⁴، وتلك الناقلة للمشاهد الحياتية.

لقد أبدع فنانون الفن الجديد بتونس العاصمة، وفنانو مدينة "تيسدروس" الرومانية في استخدام وتجسيد التشكيلات الزهرية وفروع النباتات والثمار، ومن أشهر الأزهار تجسيدا نذكر التوليب، واللوتس، والرنجس وأوراق العنب، و"الأكانتس" و"الأقثنية". كما لجنوا لزخرفة عمائرهم الي التكوينات الهندسية المنمطة، ومن الملاحظ ان أغلب هذه الأصناف قد شكّلت من خطوط ومساحات منمطة ومتكررة. أما الرموز والعلامات فقد أستعملت في الكتابات التاريخية والأرقام أو الأعداد الرومانية، وفي تصوير اللفائف والصفائر الهندسية ذات الرمزية العقلية والروحية.

V. النتائج والتوصيات

لقد تمكنا عبر عرض هذه الصور من إثبات الاستلهام من الأساطير الإغريقية والرومانية، في صنع وزخرفة الفسيفساء بمدينة الجم، وكذلك الشأن بالنسبة لتحلية وتنميق واجهات مباني "الفن الجديد" بتونس العاصمة. وكان الانطلاق من الميثولوجيا اليونانية هو العنصر المشترك بين كل هذه الأعمال الفنية. ولا ندعى في هذه المناسبة عرض كل النماذج العاكسة لوحدة المضامين الفنية والمرجعيات التشكيلية، المميّزة لهذه المنجزات، ولكننا نسعى للتفكير في أودية الفن، وعلاقة ذلك بتشكيل صورة الإنسان، كنوع من الأيقونات المستعملة للدلالة على أصل الحياة، والخصب، والآلهة، وصور الملوك، (...). وفيما يلي سنستدل، تأكيداً لما سبق ذكره، بتجسيديات هندسية، وأخرى منتمية لعالم الحيوان (كالطيور والأسماك والكواسر، والجوارح وغيرها)، والنبات (المشخص أشكاله ومفرداته عبر التمثيل، وإعادة التشكيل والتأويل). وبالرغم من تباين تقنيات تجسيد هذه الأيقونات البصرية، إلا ان استدعائها يؤكّد وحدة مضامينها المتصلة بنفس الخطاب الرمزي.

لقد أثبتت الدراسة التواصل التشكيلي والجمالي، القائمين "الفن الروماني" بمدينة الجمال تاريخية، و"الفن الأوروبي" بمدينة تونس الكولونبالية، وذلك من حيث تقاطع وتمائل أصول وتقنيات البناء والزخرفة لكلى المدينتين. وهو ما يؤكد أيضاً اتصال واستلهام فناني العمارة الكولونبالية بمدينة تونس من الفنون الرومانية والإغريقية.

12 لا تعكس الصور المعروضة في الجزء الأخير من الدراسة، كل النماذج المؤكدة لفرضية البحث.

13 تزخر ديار مدينة "تيزدروس" الرومانية، كما هو الشأن بالنسبة لواجهات مباني "الفن الجديد" بمدينة تونس، بلوحات فنية تحكي قصص الآلهة. وتشهد هذه اللوحات على شغف الفنانين بتجسيديا لمشاهد الأسطورية اليونانية والرومانية، ومثال ذلك قصة خطف "زيوس" لـ"غانيماد"، وأسطورة "ليدا" والبجعة، والعديد من المنحوتات الناتئة والأقنعة.

14 من أهم الرموز الشائعة في زخرفة واجهات مباني مدينة تونس الأوربية، وفي الفسيفساء الرومانية بمدينة الجم، نذكر حضور صورة الأسد والطاووس، والحمل، والأرنب وذلك لرمزيتها المتعلقة بالقوة والشجاعة، والروح الخيرة، والنضحية، والسحر. انظر أنيس القرعة، العمارة الغربية بمدينة تونس فترة الحماية الفرنسية ومدى تفاعلها مع الثقافة المحلية، ص 483-488.

VI. الصور والأمثلة:



صورة 2: منظر فوقي يبين تفاصيل داخلية لدار أفريقيا المصدر: دار أفريقيا، من الاكتشاف إلى إعادة البناء ص6.



صورة 1: صورة لمجسم لدار سيلان والحمار المصدر: مجسم معروض بالمتحف الأثري بالجم



صورة 4: مبنى للسكن الجماعي، شارع ابن خلدون



صورة 3: مبنى سكني، شارع الحرية



صورة 7: مقطع لمشهد يمثل "ليدا" والبجعة



صورة 6: نحت ناتئ للمسح "ميدوسا"



صورة 5: "غانيماد" قبل أن يرفعه "زيوس" إلى السماء



صورة 10: "ليدا" والبجعة:
منزل بافيا، 8 نهج سيد درويش



صورة 9: نحت ناتى لـ"ميدوسا":
مبنى 112 شارع الحرية



صورة 8: نحت ناتى لـ"غانيماد"
و"زيوس": 9 نهج زرمدين



صورة 13: تمثيل لنبتة "الكانتس"
متحف مدينة بالجم



صورة 12: جزئية من لوحة
فسيفسائية دار موكب "دينيزوس"



صورة 11: تمثيل لطائر الطاووس
المتحف الأركيولوجي بالجم



صورة 16: زخرفة بهو دخول
مبنى 12 شارع لندرا



صورة 15: تبليط بهو دخول
مبنى مصطفى مبارك



صورة 14: زخرفة من الفسيفساء
تعلو مبنى 18 نهج سالين



صورة 19: مثال لنتوءات تزخرف واجهة مبنى بـ "تيسدروس"



صورة 18: مثال لتاج، ساحة دار أفريقيا الموقع الأركيولوجي بالجم



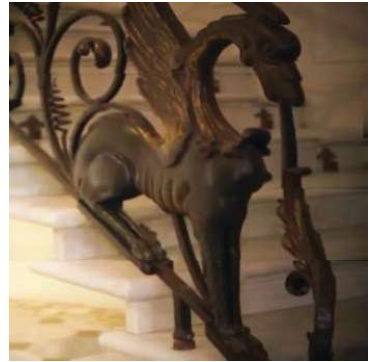
صورة 17: تفصيل نحتي المتحف الأركيولوجي بالجم



صورة 22: جزئية من زخرفة واجهة مبنى سكني بنهج بلجيكا



صورة 21: أعمدة بالطابق الأول دار نقاش شارع الولايات المتحدة



صورة 20: جزئية من حاشية الدرج دار نقاش تونس العاصمة

VII. المراجع والمصادر:

أنيس

- القرعة، رسالة الدكتور العمارة الغربية بمدينة تونس فترة الحماية الفرنسية ومدتها على معالم الثقافة المحلية للمعهد العالي للفنون الجميلة بتونس، تونس، 2018.
- ثروت عكاشة، الفن الروماني - المجلد الأول: النحت - ، موسوعة تاريخ الفن، سلسلة تاريخ الفن العين تسمع والأذن ترى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1993.
- دار أفريقيا، من الاكتشاف إلى إعادة البناء، منشورات وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية.
- ياسين الحلواني- منى الحلواني- محرز داود، مختارات من الأيقونة التراثية بولاية زغوان، إصدار لجمعية آراء المدنية والمواطنة، تونس، 2018 .

- Imed Ben Jerbiana, Céramique pré-impériale de Thysdrus (El-Jem, Tunisie), in Antiquités africaines, N° 44, Centre national de la recherche scientifique, Paris France, 2008.
- Juliette Hueber (dir.) et Claudine Piaton (dir.), *Tunis: architectures 1860-1960*, Elyzad, Tunis, 2011.
- Khaled Karoui, Étude comparative de deux maisons africaines de l'époque romaine, in Architecture domestique punique hellénistique et romaine Sauvegarde et mise en valeur, Ed ETS Série Patrimoine architectural (Ahmed Ferjaoui et Maria Luisa Germanà), Italie 2014.
- Luca Quattrocci, *L'art nouveau à Tunis (1900-1905)* Agence de mise en valeur du patrimoine et de promotion culturelle, Tunis, 1998.